

«المخاطرة القصوى المحسوبة» من أجل الكسب المحسوب. وألح الى ان ادراك الاسد لحدود قدرات سوريا في مواجهة اسرائيل قد اسفر عن تفاهم ضمني يشار اليه، عادة، بتعبير «الخطوط الحمراء». واحدثت هذه الترتيبات مزيداً من القدرة على التنبؤ بمسار الاحداث في تلك العلاقة التي تنطوي على احتمالات المواجهة وانتفاؤها في آن؛ كما ساعدت، ايضاً، في تلافي حدوث تصعيد خطير. وعلى الرغم من ان العديد من المنابر الصحافية كثيراً ما يتحدث عن اتصالات اسرائيلية - سورية «سرية» حول المسائل الامنية، فان «الخطوط الحمراء» قد نشأت، في الواقع، بشكل غير رسمي، ونبتت من تقدير الاسد لقدرة الاحتمال الاسرائيلي، ولردود الفعل الاسرائيلية على التحركات العسكرية السورية. وهذه الترتيبات نجحت، الى حد ما، في تلافي حدوث مواجهة يمكن ان تكون مكلفة، وخلق انطباعاً عن دولتين تخوضان صراعاً مريراً، لكنهما، نجحتا، الى حد بعيد، في تنظيم العلاقات بما يحقق المصلحة الاقليمية المتبادلة بينهما^(٢٤).

وربما تكون الصعوبة الاستثنائية الاخيرة التي لا بد من الاشارة اليها، بالنسبة الى السياسة السورية وتطلعاتها الاقليمية خلال الحقبة الماضية، هي، طبعاً، التناقضات العميقة بين دمشق ومنظمة التحرير الفلسطينية، النابعة، اساساً، من الرغبة الفلسطينية في الاحتفاظ بقدر كبير من الاستقلالية وحرية الحركة، في مواجهة سعي القيادة السورية لفرض الوصاية عليها، وعلى كفافها ضد اسرائيل.

وليس من شك في ان أي منحى لقراءة الدور السوري، بهذا الشأن، لا بد ان يلحظ تركّز النزاع مع الفلسطينيين على مفاصل جوهرية: مَنْ الذي يملك «الورقة الفلسطينية»؟ ومَنْ الذي يملك حق الصدارة في وضع الاستراتيجية الرامية الى تسوية هذه القضية؟

المعادلة التي اعتمدت عليها القيادة السورية في تحديدها لهذه المفاصل كانت بسيطة الى حد كبير. لقد عادت فكرة «سوريا الجنوبية»، كوسيلة تخدم السياسة الخارجية السورية في سياقها الاقليمي. وبدا هذا الامر، لغير مراقب، ان سوريا سعت، قدر الامكان، الى «الرد» لمواجهة «هجمة» انعكاسات ما بعد حرب تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٧٣ عليها. ولم يكن محض صدفة ان تظهر الفكرة لأول مرة، وبصورة علنية، في آذار (مارس) ١٩٧٤^(٢٥). كما لم تتوقف القيادة السورية، في مناسبات عديدة، عن تذكير الفلسطينيين بتضحيات دمشق في سبيل قضيتهم^(٢٦). هذه الخلاصة القاطنة، يربطها القارىء، تلقائياً، بحديث الاسد في نيسان (ابريل) ١٩٧٦، حين قال على مسمع من عرفات: «انكم لا تمثلون فلسطين اكثر منا. ليس هناك شعب فلسطيني، وليس هناك كيان فلسطيني، هناك سوريا فقط، وانتم جزء لا ينفصل من الشعب السوري، وفلسطين جزء لا يتجزأ من سوريا»^(٢٧).

وعلى الرغم من ان سوريا لم تسع الى الابتعاد، في علاقتها مع م.ت.ف. من هذا المنطق، فانها وجدت نفسها، بعد حين، في موقع تراجع على أكثر من صعيد. فقد انحسر نفوذها وتقلص دورها، لا بسبب اي تبدل جوهرى في السياسة السورية التقليدية، بل لأن منظمة التحرير انتزعت المبادرة من «الحضن السوري»، ولم يعد لسياسة دمشق السلبية ومواقفها الراضية الموقع المؤثر، كما كان عليه الحال في الماضي. فمع التحول الجذري في طبيعة النزاع مع اسرائيل، بعد خروج المنظمة من بيروت في صيف العام ١٩٨٢، وبعد اهتزاز ايدولوجية «التوازن الاستراتيجي» مع اسرائيل، لم يعد لسوريا سوى التراجع الى خط دفاعها الاخير في علاقتها مع المنظمة، إن في ما يتعلق بـ «شحن» قدرة حالة الرفض والتمرد لدى بعض التنظيمات الفلسطينية، وابرار كل ما من شأنه ان يعتبر نقيضاً لما